

وبالشكر تدوم النعم



«الحمد □ المستحق الحمد والشكر والصلاة والسلام على حامل لواء الحمد وصحبه حامدين الشاكرين.

وبعد أيّها الأخ الكريم، فإنّ النعم لا تدوم على أصحابها إلا إذا أدوا حقها من الشكر والطاعة، وحافظوا عليها من الإسراف والمعصية، كما يقرر ذاك ربّ العالمين بقوله: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم/ 7)، هذه الآية هي إعلام صريح بأنّ النعم تزداد بالشكر وتنقص بالكفران، وأنّ من سُئِن □ عزّ وجلّ أن يبتلي عباده بالخير والشر ليمتحنهم هل يشكرون في السراء وهل يصبرون على الصراء، فيقول: (وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ شَحِيرٌ وَإِلَّا يُذِرْكُمُ الْيَأْسُ فَتَكُنُنَّ أَزْوَاجًا لِّقَوْمٍ يُضَلَّوْنَ) (الأنبياء/ 35)، غير أنّ المؤمن المحتسب يثاب في كلا الحالين، كما يخبرنا بذاك الصادق الصدوق فيقول: "عجبا لأمر المؤمن، إنّ أمره كله له خير، إنّ أصابته سرّاء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرا له"، وبما أنّ الأيام دول يداولها □ بين الناس يختبر بها شكرهم وصبرهم وإيمانهم كما في قوله تعالى: (أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَبْتَاعُوا آمَنًا وَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَلَقَدْ فَعَلْنَا الْغَيْبَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت/ 2-3).

أخي الكريم، إنّ □ عزّ وجلّ جعل زينة الحياة الدنيا امتحانا لعباده فقال: (إِنَّ رَسَدًا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عِمَلًا) (الكهف/ 7)، فالعاقل من يحسن استغلال هذه النعم في طاعة مولاه ليفوز برضاه في الدنيا والآخرة، والأحمق الجاهل العاجز هو من يسيء استعمالها فيقع في سخطه وعقوبته في الدنيا قبل الآخرة، إذ إنّ من أكفر الكفران أن يضع العبد نعم مولاه في معصيته ويستعملها في التعدي على حدوده، كما أنّ من أنكر نكران الجميل أن يسيء المرء لمن أحسن إليه، و□ سبحانه وتعالى يحسن إلينا صباح مساء في الصحة والعافية، في المال والبنين، في الرزق والأمن، فكم يحسن إلينا ويسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة، غير أنّ أكثرنا للأسف لا يراها ولا يحس بها فلا يشكرها إلا لصاماً، كما قال: (وَقَلِيلٌ مِنَ الْعِبَادِ الشَّاكِرُونَ) (سبأ/ 13)، (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) (غافر/ 61)، فكم يكون جميلاً لو نكون من هذا القليل فإنّ الكرام دائماً قليل.

ولقد قص □ علينا قصة قوم سبأ الذين امتحنهم □ بالخيرات الوفيرة في ذلك البلد الطيب هواؤه، المعتدل مناخه، الخصيب تربته، فكان منظره الجميل يسرّ الناظرين، وهواؤه العليل يشفي السقيم، وبساتينه المثمرة تشبع الأكلين، لقد كانوا في نعيم مقيم لكنهم بطروا معيشتهم، وركنوا إلى الترف

والدعة، فلم يؤدوا شكر النعمة لخالقهم بل نسوه فنسيهم وأغفلهم عن ترميم سدّهم المنيع، فكأن أن انفجر في ليلة ليلاء، فقد فاضت هذه الملايين من الأمطار المكعبة من المياه تجرف أمامها كلّ أخضر ويا بس، وتقتلع كلّ نبات وبنيان، وتغرق كلّ إنسان وحيوان، حتى أصبحت البلاد بين عشية وضحاها قاعاً صفصفاً، كأن لم تكن بالأمس وكان لم يغنوا فيها. ولم يكفهم أنهم كفروا النعمة بل تعدوا ذلك إلى الترفّع على الناس ومحاولة احتكار الخيرات من دونهم فقال إِبْرَاهِيمُ: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ سَبِيلًا وَالْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا لَهَا فِيهَا ثِيَابًا سَبِيحًا وَظِلًا مِّنَ الْأَشْجَارِ أَزْهَقْنَاهُم مِّنْهُم مَّا آمَنُوا بِرَبِّنَا وَمَا نُرِيهِمْ إِلَّا جُثَاثًا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُمْ وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُمْ وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُمْ وَلَقَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهُمْ) (سبأ / 19-18).

أخي المسلم، إنّ أعظم نعمة أنعمها إِبْرَاهِيمُ على الناس هي الأمن والكفاف وقد امتنّ إِبْرَاهِيمُ على قريش بهاتين النعمتين فقال: (فَلَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ هَذَا الْعَبْدُ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) (قريش / 3-4)، إذ بدون هذين الركنتين لا طعم للحياة، فماذا تفيد القناطر المقنطرة إذا أنعدم الأمن؟ وماذا يفيد الأمن إذا انعدم الكفاف؟ وللحصول على هذين الصنوعين، لابدّ من شكر إِبْرَاهِيمَ عز وجلّ وعبادته والابتعاد عن معصيته، والرافة بعباده.

عافانا إِبْرَاهِيمُ وإيساك من زوال نعمه، وأعاذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وجنّبنا البغوي والطغيان في الأرض، وختم لنا بما ختم لأحبابه وأوليائه. ►